الحركة التورانية الجديدة
في تركيا

لاحد ادباء الانكليز

كان اول ظهور هذه الحركة العظيمة الشان في الاستانة سنة ١٩١٣ ويسميها الترك « يني توران[1] » اي التوران الجديد . والآن تسمع الناس يتحدثون بها في كل مكان . ويمكن تعريفها بانها حركة يراد بها السير في جهة القومية التركية والابتعاد عن الاسلام . ويقال ان اغراضها ما يأتي :

(١) جعل روح القومية التركية مستقلة عن الاسلام (وهذه العبارة هي عبارة الدكتور الفرد نوسيج من حديث دار بينهُ وبين زعماء الاتحاديين ونشر في جريدة درتاج الالمانية) . (٢) ترقية الروح العسكرية بين الترك . (٣) انشاء علاقات تجارية وغير تجارية مع مسلمي شمال ايران (اذربيجان) وروسيا الاسيوية وجنوب روسيا . (٤) تحرير اللغة التركية من الالفاظ العربية والفارسية . على ان لها غرضاً آخر لا يُصرَّح بهِ بمثل هذه الصراحة وهو حرمان العرب من الحقوق القومية

اما ما يرمي اليهِ اصحاب هذه الحركة فهو جعل التركي العثماني تركيًّا اولاً ومسلمًا ثانيًا . وزمام الحركة في يد جمعية تمدُّها الحكومة بالاعانات المالية واسمها « ترك اوجاقي » اسيه « الموقد التركي » او الوطن التركي وهي تبذل المجهود في ترويجها بجميع المساعي . ومما توسلت بهِ لاستجلاب الشبان التركي انشاء مدارس تورانية واصلاح الطريقة المتبعة في المدارس العليا لتعليم تاريخ القبائل العثمانية وغيرها من القبائل التورانية . وقد انشئ جيش كبير من الغلمان الكشافة برعاية انور باشا فيرن هؤلاء الغلمان تمريناً عسكريًّا يؤهلهم لدخول الجيش عند الاقتضاء . ومعظم شاراتهم وجميع القابهم تركية صرفة سابقة لعهد الاسلام بين الترك . ومن كان اسمهُ عربيًّا أُبدل باسم تركي

وللحركة وجهة ادبية ايضاً فان كثيراً من الكتب العلمية والتاريخية يترجم الآن بلغة تركية بسيطة . وكان في النية ايضاً ترجمة القرآن ولكن عُدل عنها لمعارضة العلماء . وقد نشرت كتب كثيرة تدعو الى هذه الحركة منها رواية « يني توران » من قلم خالده هانم وهي تمدح

(١) المقصد معنى التورانية غير الايرانية أطلقت على الشعوب المتوطنين خارج بلاد ايران اي الى الشمال والشرق منها او في تركستان

فيها هذه الحركة وتدافع عن حقوق المرأة فالجمع بين حقوق المرأة والحركة التورانية يظهر غريباً في عيون الذين يعلمون ان القبائل التورانية بخست المرأة حقوقها في العهود الماضية اكثر من سائر امم الارض مجتمعة

ولنقول ان اسباب هذه الحركة متعددة احدها مسألة اللغة فان اللغة التركية المركبة من عدة لغات والمكتوبة بحروف عربية تزداد كل يوم عسراً واستغلاقاً على التركي غير المتعلم وليس البحث في ذلك من شأننا هنا . ومن تلك الاسباب ان مسلمي روسيا والقوقاس حتموا الحزب القوي الداعي الى الجامعة الاسلامية بين الاتراك الاحرار على استجلاب مسلمي اسيا الوسطى وشمال ايران والقوقاس اليهم ولاسيما ان فريقاً منهم تتركوا والفريق الآخر قابل لهذا التتريك والاَّ لابتلع العرب الترك العثمانيين في آخر الامر ولو فاز هؤلاء باستخدام الجامعة الاسلامية لبلوغ غاياتهم

وهناك سبب ثالث وهو ظهور الكتاب الآتي ذكره فان ولادة هذه الفكرة بعد طول زمانها نشأت على ما يظهر من قراءة ناظم بك (السكرتير العام لجمعية الاتحاد والترقي واقوى زعمائها على ما يقال) لكتاب ليون كاهون وهو كتاب تاريخ الترك والمغول في اسيا من مبدإ نشأتهم الى سنة ١٤٠٥ . وقد ظهر هذا الكتاب سنة ١٨٩٦ واسمهُ بالفرنسوية : "Introduction a l'histoire de l'Asie; Turcs et Mongols; des origines á 1405"

وقد اعتمد المجمع العلمي الفرنسوي هذا الكتاب وهو على غاية ما يكون من البحث العلمي وصحة السند وحسن الديباجة . اما كون بعض ما فيه من الاحكام صحيحاً او غير صحيح فهذا لا نتعرَّض لهُ

وظاهر ان الحركة التي ترمي الى « جعل روح الترك القومية مستقلة عن الاسلام » لا بدَّ ان تكون عظيمة الشان عند الطوائف الاسلامية الكبرى وعند الدول التي بين رعاياها كثيرون من المسلمين كفرنسا وروسيا وايطاليا وانكلترا . فلا بدع اذا اتجهت اليها الانظار في الشرق والغرب معاً . ويقال ان احرار الترك يميلون اليها بوجه خاصٍّ بناء على القاعدة القديمة التي رسمها شمبيري اليهودي المجري المعروف وهي ان « لا وطن في الاسلام » . وحجتهم انهُ كان من مآل الاسلام تحت تأثير العوامل والتقاليد العربية والفارسية واليونانية والبيزنطية جعل الترك امة شرقية ليس لها عمران خاصٌّ بها . وفي هذا القول ما فيهِ من قلب الحقائق ووقائع الحال فلا بدع اذا بحثنا في ماهية هذه الحقائق والوقائع وفيما تفضي اليهِ . فما هي النعرة القومية التركية وما هي علاقتها بالاسلام

كانت القبائل التركية في اوائل عهد المسيحية تقطن بلاد اسيا من حدود الصين الى نهر جيحون (اوكسوس او امودار يا كما يسميهِ الترك) . وكانت ديانتها — ان كانت لها ديانة — ما يسمى « بالشامانية » اي عبادة قوى الطبيعة بالشعوذة والسحر . وكانت حضارتها حضارة سائر القبائل الرحّل الذين في اسيا الوسطى وهي حضارة ذات قواعد بسيطة تبعاً للبقعة واحوال المعيشة . واخص خواصها المميزة لها ميلها الى الحرب واتساعها بساتها . فكانت تستأجر للقتال وعليهِ كان شرفها شرف الشاكرية والمسترزقة اي الولاء لكل من قادها واطعمها . وفيما خلا ذلك لم يأتِ التركي امراً ذا شأن من تلقاء نفسهِ فلم يضع اساس دين خاصّ بهِ ولا انشأ مدنية ممتازة . ولم يحاول احد من الترك توحيد الامة التركية كلها وجهد ما في الامر ان جنكيزخان المغولي فكّر في ذلك ولم يفعلهُ . ولم يخرج التركي عن كونهِ مقتبساً او مستعيراً اي انهُ كان يلبس لبوس كل بيئة كان ينزل فيها من الصين الى فارس فالعربية فرومية الشرقية فجرمانيا . وليس بصحيح ما يقال من ان عواريهُ (اي الاشياء التي استعارها) واعظمها الاسلام حالت دون انشائهِ مدنية خاصّة بهِ . فالواقع انهُ لم يشفّ عن ميل الى ابداع المدنيّات بل الى اقتباسها

والتركي العثماني اقلّ القبائل التركية تمثيلاً لاصلهِ . فهو ليس الآن شعباً محدوداً يحكم امماً وبلاداً بحق الفتح . وربما صحّ هذا القول فيما مضى على العثماني الذي نزل اوربا وارمينية ولكنهُ لا يصدق على الذين نزلوا بلاد الاناضول التي كانت ولا تزال مجمع القوة العثمانية . واذا ضربنا صفحاً عن قبائل اليوروق والتركمان الرحل لم نجد في ترك الاناضول الآن سوى اثر ضئيل من التركية . فان قوميتهُ تعبير سياسيّ ودمهُ مزيج من قطرة تركية متضائلة وقطرات من دماء شعوب كثيرة كانت قد أسلمت وشاخت يوم بنيت الاستانة كالروم والفريجيين والغلاطيين والايسوريين والكاريين والحثيين . وهذا الدم هو الذي سال بهم الى حرث الارض وزرعها . واذا البسوا ملابس الاوربيين ظهروا مثلهم . وكانت قوام قوتهم البحرية القصيرة العمر في القرن السادس عشر امراء من دم اوربي

والفضل في احتفاظ التركي بوحدتهِ كاملةً عائد الى امرين الاسلام وطاعتهِ العسكرية . وهو لا يهتمّ بما اقتبس حكامهُ من الفلسفة الفارسية والقواعد البيزنطية لمعاملة امراء البيت المالك . اما الاسلام فيهتمّ بهِ من بعض الوجوه حتى بات عنوان الحضارة التركية وشعارها معما يكن الاختلاف الذي طرأ عليهِ بعد اقتباسهِ لهُ كثيراً . وهو الذي حفظ بنيان الدولة . وان كان التركي يعنى بالاسلام فذلك لانهُ ينطوي على مزيتهِ العسكرية التي هي اقوى

العواطف فيه . فقد الغى الاسلام منصباً للامر فلم يجادل فيه ولا جذب بشعائره ولكنه طول عهده به ما زال يدافع عن الذين انقطعوا عن رضى وانتفاع . فكان للاسلام سيفه . خذ الاسلام من القومية التركية وانظر ماذا يبقى منها

يقول التوراني انك اذا اخذت الاسلام من القومية التركية يبقى فيها المبدأ التوراني اما الاسلام فيظهر بمظهر جديد ويكون ديناً قومياً . ولكن التورانية لم تبدع شيئاً خاصاً بها لتعرضه على الانظار فقد كان تاريخها تاريخ تدمير . فالويغور دمروا الامبراطورية اليونانية في بلخ . والهن (قوم القائد اتلا المشهور) حاولوا استئناف دم الرومانيين في الشرق والغرب . والاوار حاولوا قتل الامة الصقلبية وهي في المهد . وهولاكو خرب قنوات العراق وترعه وجعل اخصب بلاد الله قفراً بائساً كما ترى الآن . والعثمانيون ابادوا المدنية البيزنطية التي كانوا يعيشون عليها — هؤلاء هم التورانيون . ثم ان اتلا « نقمة الله » وجنكيز خان الذي لقب نفسه في بخارى « غضب الله وعصا تخطيه » — هذان تورانيان ايضاً . ولم يكن الالماني وهو يساق سبايا البلجيك امامه الى ميدان القتال سوى مقلد لما كان المغول والاوار والهن يفعلون كل يوم . والفرق ان هؤلاء كانوا يعطون اسارام سيوفاً يحاربون بها . وهذا ما يحمل الواحد منا على انكار بعض الاحكام والاستدلالات التي ابداها كاهون في كتابه . فان الناس لا يصدقون ان تيمور لنك كان شهماً او جنكيزخان سياسياً . وبينا ترى كاهون يشدد بحق في بيان فضائل التركي العسكرية لا تراه يبين لنا نقائصهم العسكرية بمثل تلك الشدة وذلك الافصاح

على ان ما فات كاهون بيانه لم يفت كاتباً آخر جاء بعده وهو الدكتور بسكر فانه صور الترك والمغول باشنع مما عرفوا به من عهد المؤرخ جبن (الانكليزي) حتى اننا قلما رأينا كاتباً فاقه في ذم الفظائع والمنكرات التي كان هؤلاء الاقوام يأتونها على الدوام لاذلال الامم التي خضعت لهم ولابادتها . وليس هذا الزمان زمان تمجيد المدمر والمخرب فان بروسيا ودعاتها التوراني مشهور تزعم انها ستبني حيث تخرب الآن . وجميع الادلة تدل ان العود الى عهد التركية انما هو عود الى عهود الغزو والنهب . ولما خطب امبراطور الالمان في جنوده وقال لهم اذا امرتم فاقتلوا كل احد حتى آباءكم فقد كان يشم من هذه العبارة ريح التركية الوثنية الحقيقية التي زهت منذ الف سنة للبلاد

ان التركي خلو من قوة الاستنباط الديني فيستحيل علينا ان نتصوره ساعياً في ابداع دين قومي يتطلب شعوراً قومياً حقيقياً . ونرى التركي حدود الاناضول موطنه ما بالينا

كثيراً في نوع حكومته على شرط أن لا يضرّ جيرانهُ ولا يبقى ذيلاً لالمانيا. ولكن واقع الامر ان هذه ليست تركيا التي يحدث التوراني نفسهُ بها بل هو يريد السلطنة العثمانية كلها وربما أراد شيئاً آخر مضافاً اليها اذ لا يكاد يعقل ان العلاقات التي أُشير بتوثيقها مع مسلمي روسيا تقتصر على الشؤون التجارية كما جاء في صدر المقال بل لا بد ان تتناول اشياء اخرى غير التجارة

ومهما يكن من الامر فلا مشاحة ان تلك العلاقات ترمي الى حرمان العرب حقوقهم القومية. فان التركي يخالف العربي لاعظم مطالبهِ ويقول جهاراً اني ان لم «افعل اللازم» بالعربي فلا بدَّ «ان يفعل اللازم» بي قريباً. لذلك لا مندوحة من تتريك العربي على احسن النماذج البروسية اي كما فعلت بروسيا في ولايتي شلزويج وهولشتين (اللتين اخذتهما من الدنمرك منذ نحو ٥٠ سنة) حيث حظرت على الاولاد الصلاة باللغة الدنمركية. وقد باح بعض كتّاب الترك بسرّ هذه السياسة فقال جلال نوري بك في كتاب ألفهُ حديثاً «لا بد من تصيير البلاد العربية ولاسيما العراق واليمن مستعمرات تركية تنشر فيها لغتنا لتصير هذه اللغة لغة الدين متى آن اوان ذلك. فان تتريك البلاد العربية من الزم لوازم وجودنا لان فكرة القومية اخذت تستيقظ في صدور الشبّان العربي وهي تهدد بنيان دولتنا فلا بدَّ لنا من اعداد العدد لمقاومتها». وقال احمد شريف بك في جريدة طنين «ان العرب يتكلمون بلغتهم ويجهلون التركية كلّ الجهل كأن بلادهم ليست تابعة لتركيا. فالواجب على الحكومة ان تجعلهم يتعلمون لسانها ويستبدلوهُ بلسان الامة التي تحكمهم. واذا تناست الحكومة هذا الواجب كان مثلها مثل الذي يحفر قبرهُ بيديهِ. لانهُ ان لم يتعلم العرب لسانهم وتاريخهم وعاداتهم سعوا في اعادة مملكتهم القديمة على انقاض العثمانية». وقال كاتب آخر في منشور وزع على نفقة الحكومة العثمانية في القوقاس «لقد كان العرب مصيبة علينا فان جواد غازي تركي افضل من انبياء الامم الاخرى»

هذا بيان وضع عمداً لاستئصال قومية امة من الامم. والدول المتحالفة تدافع عن مبدإ القومية اشد دفاع وتقول انهُ لا يجوز لامة من الامم ان تمنع امة اخرى من ان تعيش عيشة خاصة بها منفصلة عن غيرها. وعليهِ فانها تميل بكليتها الى نصرة العرب في هذه المسألة. اما الامم المسلمة العظيمة التي تحكمها فرنسا وانكلترا فلا محلّ للريب في اميالها — فانها مع العرب ايضاً. والسبب الاكبر في ذلك كون الاسلام نشأ فيهم. وبعض السبب وخصوصاً في الاملاك الفرنسوية بشمال افريقية علم اهلها ان بينهم وبين العرب صلة نسب. ومع ان المسلمين الذين هم خارج تركيا لم يرقهم عبث الترك بالاسلام فانهم سلموا بالخلافة

التركية اعتقاداً بان سلاطين آل عثمان انويائه قادرون على رفع شأن الاسلام في عيون الاجانب . وقد آن الاوان الذي يتمكنون فيه من الرجوع عما سلموا به قبلاً

ان مصاب حلفاء المانيا بها مصاب عظيم اذ الظاهر ان الالماني يعتقد ان الشيء يمكن ان يكون وان لا يكون في وقت واحد معاً . فهو يستغيث بكل قانون دولي او غير دولي من جهة في حين انهُ يحرق القوانين من اوجهه الاخرى . وتراهُ يبني الاسلام بيد ويهدم باليد الاخرى . ففي الشرق نادى امبراطور الالمان بنفسهِ انهُ صديق المسلمين الصدوق حتى ادعى بعض المسلمين انهُ اعتنق الاسلام . ونودي بالجهاد لحمل المسلمين على القتال في جانب المانيا فاخفق ذلك النداء . وبذلك المساعي الكثيرة لحمل الاسرى المسلمين من رعايا فرنسا وانكلترا على نبذ ولائهم لدولتيهم بدعوى ان الواجب يقضي عليهم بمقاتلة الكفار دفاعاً عن الترك والاسلام فشلت هذه المساعي ايضاً

هذا هو الوجه الاول من هذه الصورة . اما الوجه الثاني فكلهُ عبر . فان اول ما شاهد الناس من آثار مقاومة المانيا للاسلام والعمل ضدهُ كان يوم وقع في يد الجنرال سمطس في موشي نسخة من ذلك المنشور المشهور الذي وزعتهُ الحكومة الالمانية على حكام مستعمراتها الافريقية في اكتوبر سنة ١٩١٣ تسألهم فيهِ عما هي افضل الوسائل لتقييس ظل الاسلام في المستعمرات الالمانية وهل يمكنها سن القوانين لالغاء الاسلام من تلك المستعمرات ومنع الناس فيها من الجري على اوامرهِ ونواهيهِ

وعلى هذا الاثر قامت الحركة التورانية . واذا رأى الناس اثراً من المانيا في كل وادٍ فلا تلم الا نفسها . ولكن لا جدال في ان زعماء الاتحاديين هم ظهيرو هذه الحركة التي يراد منها فصل القومية التركية عن الاسلام وجعلها مستقلة عنهُ . وغني عن البيان ان حركة مثل هذه لا تقوم لها قائمة ولا تزهو جهرةً لو كانت المانيا منكرة لها والمانيا هي كل شيء في تركيا

كتب قمبيري المجري منذ ثلاثين سنة يقول انهُ يجب على تركيا اما ان تُغرب (تصير غربية) واما ان تهلك . ولما كانت لا تستطيع الاول فلا مناص لها من الثاني . نعم ان احرار الترك اقتبسوا بعض الشيء من الغرب ولكنهم اقتبسوهُ من النظام البروسي المقضي عليهِ بالفناء . وقد انتهى سلطانهم ودنت آخرة ملكهم يوم رفضوا ضمان الحلفاء لاملاكهم . وستبدي لنا الايام هل يستطيع العثماني انشاء دولة في الاناضول من غير ان يتبع الاساليب الغربية بصدق واخلاص . ولكن لا حاجة بنا الى الزمان لنرى ان ايادة القومية العربية على المنوال البروسي التركي فكرة مقضيٌ عليها بالفشل بعد ان قامت قائمة العرب في مكة والمدينة